أم عمارة.. نسيبة بنت كعب

عن عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ في شأن أم عمارة : « ما ألتفتُ يوم أحد يميناً ولا شمالاً إلا وأراها تقاتل دوني »..

● أسرتها

هي نسيبة بنت كعب بن عمرو الأنصارية الخزرجية النجَّارية وكُنيتها أم عمارة .

أخوها : عبد الله بن كعب أحد المجاهدين الذين شهدوا بدراً ، والثاني أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أحد الخاشعين البكائين من خشية الله ، تزوجت بزيد بن عاصم ، فولدت منه ابنيها حبيباً وعبد الله ، المؤمنَين المجاهدَين .

وخَلَفَ عليها من بعده غزية بن عمرو فولدت له تميماً وخَوَلة .

• إسلامها

حين أراد الله أن يكون للإسلام تربة ينمو فيها غرسه وأرض تقوم عليها دولته ، ساق أبناء يثرب من الأوس والخزرج إلى موسم الحج فأسلم جماعة منهم على يد رسول الله ﷺ ، وعادوا إلى قومهم فانتشر الإسلام بينهم ، وكانوا يلتقون برسول الله في كل موسم عند العقبة بمكة يوصيهم ويُبايعهم ، حتى كان العام الثالث لهم فتواعدوا عند العقبة أوسط أيام التشريق وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ، فبايعوا النبي عليه السلام أن يمنعوه مما يمنعون منه نسائهم وأبنائهم وأنفسهم ، وكانت المرأتان اللتان شرَّفهما الله بهذه البيعة هما : أم عمارة ، وأم منيع أسماء بنت عمرو .

روى الواقدي عن أم عمارة قالت : كانت الرجال تصفق على يدي رسول الله ليلة العقبة والعباس آخذ بيده ، فلما بقيتُ أنا وأم منيع نادى زوجي غزية بن عمرو :

يا رسول الله .. هاتان امرأتان حضرتا معنا تبايعانك ، فقال : قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه ، إني لا أصافح النساء .

وهكذا أسلمت أم عمارة مع السابقين ، وبايعت مع المبايعين ، لم يكن إسلامها تقليداً لأسرة ، ولا تبعية لزوج ، ولكنه كان إسلام القلب والعقل والإرادة ، فوهبت نفسها لهذا الدين الذى آمنت به ، تعمل به وتعمل له ، وتجاهد في سبيله .. في البيت .. في المسجد .. في الميدان .. في كل مكان .

وكانت طموحة عالية الهمَّة ، تُريد أن تُثبت للمرأة المسلمة مكانها بجوار الرجل المسلم ، وكأنها لم يرض طموحها أن يتحدث القرآن إلى الرجال وتدخل المرأة تبعاً ، فأتت رسول الله تقول له : يا رسول الله .. ما أرى كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء ، يذكرن في شيء . فاستجاب الله لها ، ونزل أمين السماء إلى أمين الأرض بقرآن يُتلى يُسجِّل فيه موقف المرأة بجانب الرجل صراحة لا ضمناً .

وقصداً لا تبعاً . قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٣٥)

● في ساحات الجهاد

قال شاعر عربي :

كُتبَ القتلُ والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وقال آخر :

خُلقنا للتجلد والأسى وتلك نساء للبكا والمآتم

بَيْدَ أن أم عمارة غيَّرت ظن الشعر ، وأبطلت رأي الشاعرين ، فلم ترض أن يكون نصيبها جر الذيول عند النصر ، ولا البكاء والعويل عند الهزيمة ، بل كان همها أن تُسهم - مع الرجل - في اجتلاب النصر ، ودرء عار الهزيمة .

وها نحن نراها تحضر معظم الغزوات مع رسول الله ﷺ ، تخدم المجاهدين ، وتُحرض المقاتلين ، وتُثبِّت المترددين ، وتقوم على الجرحى ، وتحمل الماء للعطاش ، فإذا جدَّ الجد أو انفراط العقد ، وناداها الموقف شهرت سلاحها وقاتلت قتال الأبطال ، وثبتت ثبات الجبال .

شهدت غزوة أحد هي وزوجها وابناها ، ومعها شنٌّ لتسقي الجرحى ، ورأت انتصار المسلمين في الجولة الأولى حتى غلب الضعف الإنساني على نفوس طائفة استهوتهم الغنائم وأرادوا الدنيا ، وتركوا أماكنهم التي عيَّنها لهم رسول الله ، فتحوَّل ميزان المعركة ، وأتي المسلمون من خلفهم ، واضطربت الصفوف وانتشر النظام . وفي هذه اللَّحظات الرهيبة لم ينخلع قلب أم عمارة من هول الصدمة ، ولم يكن سلاحها الصراخ أو الدموع . لقد قاتلت وأبلت بلاءً حسناً وهي حاجزة ثوبها على وسطها واقفة بين يدي الرسول تتلقى دونه الضربات والسهام، وكأنها ترس يحميه، حتى جُرحت اثني عشر جرحاً بين طعنة برمح أو ضربة

بسيف . ولما أقبل ابن قميئة لعنه الله يريد النبى ﷺ كانت فيمن اعترض له ، فضربها على عاتقها ضربة صار لها فيما بعد ذلك غور أجوف ، وضربته هي ضربات .

دخلت عليها أم سعيد بنت سعد بن الربيع فقالت : حدثيني بخبرك يوم أحد ، فقالت : خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والرياح والدولة للمسلمين ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله فجعلت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله بالسيف وأرمي بالقوس حتى خلصت إليَّ الجراحة .

فلا غرو أن يذكر الرسول فضلها وينوِّه بشأنها ، فقال « لَمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأراها تقاتل دوني ». وقال لابنها عبد الله : « بارك الله عليكم من أهل بيت .. مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك (يعني زوج أمه) خير من مقام فلان وفلان ، ومقامك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل بيت »!

قالت أم عمارة : ادع الله أن نرافقك في الجنة .

قال : اللَّهم اجعلهم رفقائي في الجنة

قالت : ما أبالي ـ بعد ذلك ـ ما أصابني من الدنيا .

وفي الحُديبية .. حين بلغ المسلمين أن عثمان قتلته قريش ، وقف النبى يُعلن في أصحابه : إن الله أمرني بالبيعة ، فأقبل الناس يبايعونه متزاحمين حتى تداكوا ، فما بقي لهم متاع إلا وطئوه ، ثم لبسوا السلاح ـ وهو معهم قليل ـ وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به فأخذته بيدها ، وجعلت منه سلاحاً ، وشدَّت سكيناً في وسطها .

وفي حُنين ـ حين انكشف المسلمون ـ نرى منظراً عجباً ، امرأتين من الأنصار تقفان موقفاً رائعاً : أم سليم بنت ملحان معها خنجر قد حزمته على وسطها وهي يومئذ حامل بابنها عبد الله ، وأم عمارة تصيح بقومها الأنصار : أي عادة هذه ؟ ما لكم وللفرار ؟ وشدَّت على رجل من هوازن فقتلته وأخذت سيفه .

● فى اليمامة

عاشت أم عمارة طوال حياة رسول الله تجاهد بجوار زوجها وابنيها ، حتى لحق النبي بالرفيق الأعلى ، وكان يكفيها جهادها مع النبى رصيداً ضخماً تلقى به الله . لكن الجهاد ـ وإن كان صعب التكاليف مُرُّ المذاق ـــ له حلاوة لا يسلوها من ذاقها ، ولا يحس طعمها القاعدون والمتقاعسون ، وقد تذوَّقت صاحبتنا حلاوة الجهاد ، ولذَّة الكفاح ، فأبت إلا أن تشارك المجاهدين في حرب المرتدِّين المتمردين في عهد الصدِّيق أبي بكر ، وشهدت معركة اليمامة مع خالد بن الوليد ، تلك المعركة الرهيبة التي دار القتال فيها بين المسلمين وبين مسيلمة الكذاب ومن تبعه من المتعصبين والمضللين ، وقد عاهدت الله أن تموت دون مسيلمة أو يُقتل ، فإن لها عنده ثأراً أى ثأر . أليس هو قاتل ابنها حبيب الذي كان النبي قد بعثه إلى مسيلمة برسالته فكان إذا قال له : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال : نعم فإذا قال : أتشهد أني رسول الله ؟ سكت وقال : أنا أصمُّ لا أسمع . وفعل ذلك مراراً فغاظ ذلك اللَّعين

الكذّاب ، فما كان منه إلا أن قتله وقطّعة عضواً عضواً ، مخالفاً بذلك التقاليد المرعية أن الرُسل لا تُحبس ولا تُقتل .

فلا عجب أن تستبسل ابنة كعب في المعركة ، تدفعها عاطفة الأم الموتورة وعقيدة المؤمنة القوية ، وإلى جنبها ابنها الثاني عبد الله يحفزه نور اليقين في فؤاده ، وتلهبه نار الثأر لأخيه في حناياه ، وشاء القدر أن يلتقي سيفه وحربة وحشيّ (قاتل حمزة) على مسيلمة ، رماه وحشيٌ بالحربة ـ وهو مسدِّد الرمية ـ وضربه عبد الله بالسيف ـ وهو فتى الحروب ورَبيب الجهاد ـ فأطاحت بالملعون وارتاحت الأرض من شرِّه .

أما الأم فقد قُطعَتْ يدها ، وجُرِحت بضعة عشرة جرحاً أخر تُضاف إلى جراحها القديمة ، وبقيت آثارها في جسدها مفخرة ناطقة لها خاصة وللمرأة المسلمة عامة ـ هذا في الدنيا ـ وفي الآخرة تكون أشهادها عند الله ، حين تُبعث بها يوم القيامة تقطر دماً : اللَّون لون الدم والريح ريح المسك .

* * *

عبرة

أرأيتَ أيها الأخ المسلم ؟ ! أرأيت أيتها الأخت المسلمة؟ ! أن الإسلام العظيم الذي نسعد بالإيمان به ، ونهتدي بنوره المبين ، ونستظل بتعاليمه الوارفة ، نشعر بأخوته الوثيقة بيننا وبين ٩٠٠مليون من أبنائه .. هذا الإسلام لم يأتنا مصادفة أو بفعل الخوارق ، لم يصلنا في طريق مفروش بالسندس والإستبرق ، ولكنه وصلنا في طريق مضرج بالدماء ، مفروش بالجماجم والأشلاء ، شارك فيه الرجال والنساء ، والشيب والشباب .

فاحرصي أختي المسلمة على هذا التراث الغالي ، وجاهدي من أجله . .

أما أنتَ أيها الأخ المسلم ، فلا يكن نصيبك فيه أقل من نصيب أولئك النساء .

* * *